مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 07/ العـدد: 01/ جوان (2023)، ص.380/370

تجلّيات الخطاب الصّوفي في ديوان «جرس لسماوات تحت الماء» لعثمان لوصيف
-قراءة تأويليّة لنماذج شعريّة-

The manifestations of the Sufi discourse in the book "The Bell of the Heavens Under Water" by Othman Lousif
A hermeneutic reading of poetic models

حاكمي حمزة
hakmi.hamza@edu.uni-oran.dz
جامعة وهران 1-أحمد بن بلّة-
مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/11/14 تاريخ القبول: 2023/04/14 تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص:
الشّعر والتّصوّف حقلان متقاربان في عالم معرفيّ واحد؛ عالم التّجاوز والبحث عن الحقيقة بأدوات معرفيّة لا يقبلها المنطق المألوف، ولمّا كان ديوان «جرس لسماوات تحت الماء» يحفل بكلّ ذلك، فإننا أردنا من خلال هذه الدّراسة أن نكشف عن أبرز تجلّيات الخطاب الصوفي، ونبيّن أسباب توظيفها عبر قراءة تأويليّة لنماذج شعريّة من هذا الديوان.
ولقد تمحورت تجلّيات هذا الخطاب في الرّموز والأساطير والمفارقات الصّوفيّة كالمطاردة والإلتفات، والصّور الشّعريّة التي كشفت عن تيمات صّوفيّة متعدّدة؛ ممّا يحيلنا إلى كون هذا الخطاب قد جاء عفويّا يعكس بحق تجربة الشّاعر الصوفيّة.
كلمات مفتاحية: الخطاب الصوفي، تجلّيات، قراءة تأويليّة، الرمز، المفارقة.

Abstract:
Poetry and mysticism are two closely related fields in the world of transcendence and the search for truth with cognitive tools that are not accepted by the usual logic, and since the book "Bell of the Underwater Heavens" is full of all this, in this study, we wanted to highlight the most important manifestations of the Sufi discourse, and to explain the reasons for its use through a hermeneutic reading of poetic models from this book.
The manifestations of this discourse centered on mystical symbols, legends and paradoxes, and poetic images that revealed mystical themes, which leads us to the fact that this discourse came spontaneously and truly reflects the poet's mystical experience.
Keywords: *Sufi discourse, manifestations, hermeneutic reading, symbol, paradox.*

-مقدّمة :
يتكرّس الخطاب الصّوفي كواحد من الخطابات التي تتفرّد في بنية العناصر المشكّلة له؛ إذ هو في عمومه خطاب تعتيميّ موغل في الرّمز، يأخذ القارئ ويردّه حينا.

والتصوّف قبل أن يكون خطابا أدبيّا؛ هو ممارسة واقعيّة وذات طبيعة دينيّة خالصة تؤسّس لرؤية مختلفة في النّظر إلى الأشياء، ولأنّه ينهل ممّا هو روحيّ، أي من غير المرئيّ في الإنسان، أسّس لنفسه منظومة متكاملة من العقائد والقناعات التي تمنحه الخصوصيّة، والتّفرّد، والتّميّز.

ولكي نفهم الجديد الذي أضافه التّصوّف باعتباره خطابا فكريّا وتمظهرا إبداعيّا لابدّ من الوعي بأنّ طبيعة الممارسة الدّينيّة التي يصدر عنها التّصوّف هي الدّافع إلى تحقيق لغة مغايرة، تساهم في تشكيلها طبيعة الحال والمقام التي يكون فيهما الصّوفيّ.[1]

ومن الخطأ التّمادي في الاعتقاد بأنّ الخطاب الصّوفيّ هو خطاب يقع جانب الدّين **(parareligion)**؛ وهو أنّ الخطاب الدّينيّ يشتغل بلغة حرفيّة لا مجال فيها للتّخييل. لأنّ لغة أي نصّ، ومن ثمّة بنيته، لا تعني إلّا ما يقصده المرء من استخدامه لها، فاللّفظة في اللّغة والنّص غير اللّفظة في الخطاب؛ الذي لا يريد المتكلّم باستعمالها التّخييليّ فيه إلّا معنى بعيد يقصده**[2]**.

. ونحن في هذه الدّراسة نسعى إلى الكشف عن تجلّيات هذا الخطاب في ديوان "جرس لسماوات تحت الماء" للشّاعر عثمان لوصيف، وتأويلها، وكشف أسباب توظيفه عند الشّاعر عثمان لوصيف؛ مجيبين على الإشكاليّة التي وضعناها قبل بداية الدّراسة وهي: ما الدّلالات التّي تحملها عناصر الخطاب الصّوفي في ديوان جرس لسماوات تحت الماء؟ وهل كان توظيف هذا الخطاب مقصودا أم عفويّا ؟

وفي سَعيِنَا إلى أهْدافِنا المَنشُودَة من هذا البَحث اتّبعنا المنهَج الوَصفيَّ التّحلِيليّ، الذِي يُساعدُ على دِرَاسَة العلاقَات والظَّواهرِ كَمَا هيَ موجُودَةٌ فعْلًا، وتصنيفِهَا وَتحلِيلِهَا وإخضَاعِهَا للدّرَاسة الدَّقيقَة.[3]

1. الخطاب الصّوفي وعناصره:

مثلما أنّ الخطاب الشّعريّ هو امتداد للتّجربة الشّعريّة، فإنّ الخطاب الصّوفيّ يعبر هو الآخر عن تجربة صوفيّة عرفانيّة ووجدانيّة تروم الخوض في حقائق الذات والكشف عن المطلق اللّامتناهي**[4]**.

وتختزل الباحثة نهاد خيّاطة معنى التّجربة الصّوفيّة بقولها: إذا قال الصّوفيّ: لا أرى شيئا غير الله، فهو في حال وحدة شهود. وإذا قال: لا أرى شيئا إلّا وأرى اللّه فيه، فهو في حال وحدة وجود. وهذا أوجز تبسيط ممكن لهذين الاصطلاحين اللّذين يختزلان التّجربة الصّوفيّة في كلّ أبعادها**[5]**.

وتقوم التّجربة الصّوفيّة على الحبّ كأساس تبنى عليه كلّ المقولات، فالحبّ هو الذي أدّى إلى وجود العالم، والإنسان وكلّ الكائنات، فالأرواح تتعطّش للقرب لأنّها محلّ المحبّة، في حين تحلّ المعارف في القلوب وهي ترجمان الأرواح، والحبّ هو النّقطة المحوريّة التي تدور حولها كلّ المقامات والأحوال**[6]**.

فالخطاب الصّوفيّ هو ذلك الخطاب الفريد في نوعه الذي يعتمد في تراكيبه على قراءة الذّات وتتبّع حركتها الجوانية[7]، وذلك بالتّفتيش عن تفاصيلها النّفسيّة وتوهّجاتها الروحانيّة، والكشف عن حقيقة صراعها مع الوجود والمطلق**[8]**. وهو يتأسّس على صياغة جماليّة تفاجئ القارئ، وتربك حدود توقّعه فتوقظ فيه الحسّ الفنّيّ والذوق الجماليّ، ولا شكّ أنّ الخطاب الصّوفيّ إذ يعبّر عن تجربة عرفانيّة ووجدانيّة تروم الخوض في حقائق الذات والكشف عن المطلق اللّامتناهي، فإنّه في المقابل من ذلك يعدّ جزءا من الكتابة الإبداعيّة التي تؤكّد علاقتها بالأدب، أين يصبح الخطاب الصّوفيّ خطابا إبداعيّا يمتلك خصائص الأدب، ومقوّماته الفنيّة ويتجسّد وفق تشكيلات لغويّة، وبلاغيّة أسلوبيّة فريدة**[9]**.

والخطاب الصوفيّ إذ هو يعبّر عن تجربة خاصّة، تتسامى على كلّ التجارب الإنسانيّة العاديّة باعتبار أن الشاعر فيها يروم الفكاك من قيود الواقع ونواميس المألوف والارتقاء نحو مدارات الكمال المنشود**[10]**. فإنّه يُبين عن خطاب استثنائي فريد في نوعه تتحوّل فيه القصيدة إلى حالة من الرواء المتأجّج والتوتّر الحميم اللّذين يخلقان مناخا ضاجا بالوله والغموض والعذوبة.[11] وتمتاز لغته بشعريّة خاصّة تظفر بخصوصيّة القول الجماليّ وهي عينها لغة عثمان لوصيف في ديوانه المدروس أو دواوينه الأخرى. وتؤسّس لبنية تنبذ المألوف والمعتاد، لترسم شبكة من العلاقات المتداخلة والمتشابكة والمتقابلة والمتعارضة لتقترب من المفارقة**[12]**. فيجد القارئ نفسه أمام مفارقات لغويّة، وتقابلات وتقاطعات ليس يجد لها مثيلا في أي خطاب شعريّ.

وحديثنا هو عن اللّغة التي تؤكّد صلتها بالخطاب الصّوفيّ الذي يخوض فيه الشّاعر مغامرة الكتابة وفعل الارتطام بشراك اللّغة، فيمزّق الكثير من قداستها ونسيجها الجليل بفعل هذا الاندفاع الأهوج الذي لا يأبه بما فيها من عراقة أو مهابة.[13]

وبما أنّ دأب الشّاعر الصّوفيّ هو الغموض والخروج عن المألوف في خطابه، فإنّنا نجد علاوة على استخدامه للرّمز والمفارقات اللّغويّة تنوعيه في الصّور وجنوحه إلى الأسطورة.

يقول أدونيس: «الكتابة الصّوفيّة تجربة في الوصول إلى المطلق، وهو ما نجده عند كبار الخلّاقين عبر جميع العصور. والرّمز والأسطورة شكلان للاتّجاه نحو أعماق أكثر اتّساعا»[14]

والصّورة تصلنا بالرّمز وبالأسطورة، ذلك أنّها ناشئة من هذا الجدل الصاعد الهابط معا، بين اللّه والإنسان، بين الواقع غير المرئي، والواقع المرئي.[15] وعبر هذه الجدليّات والتّناقضات تبرز المفارقة كعنصر فعّال في الخطاب الصّوفي وقد أضافها محمّد علي كندي في كتاب " في لغة القصيدة الصّوفيّة"[16]، وبالتّالي فالأمر الذي يكاد يتّفق الدّارسون حوله –ومنهم أدونيس-على أنّ الرّمز والأسطورة والصورة والمفارقات اللّغويّة من المشكّلات الرئيسة للخطاب الصّوفيّ .

2. القراءة التّأويليّة للخطاب الصّوفيّ:

تسعى القراءة التّأويليّة إلى كشف تجلّيات الخطاب الصّوفي لأنّه مشتّت دلاليّا، وهو مليء بالشّروخ والفراغات، زيادة على لغته المتشظّية، ومدلوله الذي يبدو منفلتا من الدّال المعجميّ، ومتمرّدا عليه حتّى لم تعد العلاقة بينهما تلك العلاقة الثّابتة المستقرّة.[17]

والقراءة التّأويليّة شديدة الالتصاق بالخطابات المبهمة، فهي تخترق النّسيج أو السّياج اللّغوي في الخطاب لتتغلغل فيه؛ بسبر انبناءاته وأنسقته وتعالقاته، وهي ليست قراءة ساذجة لا تتجاوز سطحه. وهي معرضة عن القصود والنيّات، ومتوجّهة نحو ما يقوله الخطاب، ونحو العالم الذي يفتح عليه، أي نحو ضرب وجوديّ آخر غير هذه القصود وهذه النيّات.[18]

والقراءة التّأويليّة تجعل الفهم غرضها أو واحدا من أغراضها، ولا يقتصر هذا الفهم على الكلمات والألفاظ وإيحاءاتها، بل إنّه يتعدّى إلى فهم التّجربة بحدّ ذاتها.[19] الأمر الذي يتطابق والخطابَ الصّوفي بمرجعيّته التي هي التّجربة الصّوفيّة العرفانيّة؛ فإنّ أيّ قراءة تأويليّة للخطاب الصّوفيّ تنطلق بالضّرورة من نقطة التّجربة التي تمثّل في الغالب مضمون هذا الخطاب ومادّته وموضوعه ثم تنطلق إلى كشف تلغيزاته، وفكّ رموزه، والكشف عن صوره، وإحصاء مفارقاته وتبريرها دلاليّا. وتستند التأويليّة في الأساس إلى أسس لغويّة وسياقيّة ونفسيّة.[20]

3. تجلّيات الخطاب الصّوفي في ديوان «جرس لسماوات تحت الماء» وتأويلها:

يمثّل ديوان"جرس لسماوات تحت الماء" من الدّاخل فضاءً شعريا يتحقق فيه أمران اثنان؛ أولهما: استثمار الخطاب الصوفي عقيدة ولغة وأسلوبا بشكل تظهر فيه خصوصيّة الشّاعر عثمان لوصيف في بهاء لغته وصفائها. والأمر الثّاني: يتمثّل في غلبة أنواع المفارقات النّاتجة عن طبيعة الخطاب الصوفيّ المستثمَر في هذا الدّيوان. وهي مفارقات جعلت المعنى ينفتح أكثر فأكثر على التّأويل والقراءة، وحتّى قراءة القراءة. وهذه المجموعة الشّعرية طريق لدراسة مفاهيم الصّوفيّة المختلفة التي تشرّبها الشّاعر، وعبّر عنها في أشعاره المختلفة.[21]

أولا: الرموز وتأويلها:

أ-رمز الجرس: الجرس هو الرّمز الذي بنى عليه الشّاعر عثمان لوصيف ديوانه، والرّمز الذي بدأ به هذه القصيدة الطّويلة؛ وهو في معجم اصطلاحات الصّوفيّة: إجمال الخطاب بضرب من القهر[22]؛ يقول الشّاعر:[23]

«آه على جرس توغّل في الضّباب

فلا يعود سوى على زفرات ناي نازف»

وحرف الجيم في لطائف الأعلام هو جامع التّجليات، وهو الإجمال والجمال والجلال[24]. فقيمة الجرس هنا تظهر على أنّه منتهى كلّ شيء، ويتعدى كونه منبّها أو إيذانا بشيء ما كما هو حال أجراس الكنيسة؛ بل هو النّور الذي يطارده الشّاعر فتخطفه البروق، يقول الشّاعر:[25] «جرس أطارده فتخطفني البروق»

وهو الغبطة والسّعادة التي يهرول من أجلها الشّاعر، والتي قد تتحقّق بهذه الخطابات والآهات التي قد تكون هي في حدّ ذاتها أجراسًا وأنغاما يستأنس بها.يقول الشّاعر:[26] «جرس النّدى.. جرس الحضور»

والجرس هاهنا ليس مشابها لبقيّة الأصوات بل هو متعلّق بعالم الرّوح أيّما تعلّق، وقد نتأوّله بأنّه جزء مفقود عن روح الشّاعر يسعى وراءه سعيا حثيثا؛ وكما هو الحال في لطائف الأعلام فإن حرف الجيم في الجرس قد يتعالق مع جيم آخر في كلمات أخرى مثل: جنّة، جلاء، جسد، جمال، جلال، جوامع، جواهر...[27] وقد تكون إحداها هي هذا الجزء الرّوحي الذي سكن الشّاعر فأهم بمطاردته؛ يقول:[28]

«جرس هو الكون الكبير
وهو الصّبابة والغرابة»

يقول كذلك:[29]

« يشدّني جرس ويسلّمني إلى جرس
قلت: الله! هذه سدرتي»

ويمكن تأويل الجرس في مواضع أخرى على أنّه يرمز للروح؛ روح الشّاعر المرفرفة إلى خالقها. يقول الشّاعر:[30]

« وأنا.. أنا جرس يسافر في الدّنى»

يقول كذلك:[31] « من علّم الأجراس معجزة السّفر ؟»

ب- **رمز المرآة (المرايا):** المرايا هي رمز التّجلّي الشّهوديّ عند الصّوفيّة[32]، وانعكاس قدرة الخالق في خلقه، والتفكّر فيه والتدبّر يقول الشّاعر:[33]

« فإذا الطّبيعة كلّها سرّ يكاشفني
فأبصر في مراياها الحميمة
طفلة عصماء»

ويمكن تأوّل المرايا أيضا بالرّؤى التي يراها الشّاعر الصّوفيّ والتي لا تتأتّى لغيره من الشّعراء؛ إذ هو يتجاوز العالم الماديّ، فيبصر ببصيرته ويدخل عالما مثاليّا قد تتدخّل فيه الطّبيعة الملهمة حسب أسطر الشّاعر عثمان لوصيف. ويمكن أن تكون المرايا هي صدى صور الأجراس، والواسطة بين الشّاعر وما يصبو إليه؛ يقول الشّاعر:

« يا مرايا لألئي وتبسّمي
تتناسل الأجراس»

ت-رمز النّاي: هو ديوان عثمان لوصيف؛ رمز للرّوح التي تحنّ إلى عالمها وتنوح، وتنزف جراحا وآهات؛ يقول الشّاعر:[34]

«آه على جرس توغّل في الضّباب
فلا يعود سوى على زفرات ناي نازف»

ولآلة النّأي مكانة خاصّة في الشّعر الصّوفيّ لاتّصاله بالعشق الإلهيّ، وهو الجامع للحبّ، والموصل إلى المحبوب. وهو ما عبّر عنه عثمان لوصيف في ديوانه: [35]

«شعري كتابات الطّيور على المدى
وقوافل النّايات يحدوها الرّجاء»

ث-رمز السّرير: يمكن تأوّله بسرير النّبوّة ابّان الرّحلة العروجيّة للنبيّ صلّى الله عليه وسلم، وإسقاط ذلك على رحلة الشاعر. وفيه يقول: [36]

«من أين تصعد هذه الأجراس
نحو سريرنا.. من أيّ قاع مظلم»

وقد يكون رمز بداية للرّحلة العروجية.قول الشّاعر: [37] «على سريري تحتفي كلّ الأزاهر والغصون».

ج- **رمز الخمر:** استعمل الخمر بمفهومات متعدّدة في الخطاب الصّوفيّ من بينها الإشارة إلى الذّات الإلهيّة، والإشارة إلى الأسرار والتّجلّيات الإلهيّة، والإشارة إلى الحبّ الإلهيّ، والإشارة إلى حقائق الغيب، والإشارة إلى التصوّف أو علم الحقيقة. وهكذا جاءت رمزيّة الخمر فوق مستوى الواقع، ينسحب خلالها الشّعراء من العالم الحسيّ إلى عالم الحبّ الإلهيّ. ويرمز الخمر إلى المحبّة الإلهيّة بوصفها أزليّة قديمة، منزّهة عن العلل مجرّدة عن حدود الزّمان والمكان.[38] ومنه يقول الشّاعر: [39]

«هذي أباريقي لكم فيها شفاء
فخذوا.. خذوا من خمرتي»

ح- **رمز البرق:** وهو أوّل ما يبدو من نور الذّات فيخلّصه من حجب الصّفات.[40] يقول الشّاعر:[41] «جرس أطارده فتخطفني البروق» والبروق مفردها البرق؛ الذي يرمز حسب محمّد كعوان في كتابه التّأويل وخطاب الرّمز "قراءة في الخطاب الشّعر الصّوفي المعاصر" إلى الذّات الإلهيّة باعتبارها برقا يخطف الأبصار، وإلى التّجلّي الشّهوديّ الذي يشير إلى الطّريق والرّحلة.[42] وهو في معجم اصطلاحات الصّوفيّة: أوّل ما يبدو من اللّامع النّوريّ فيدعوه إلى الدّخول في حضرة القرب من اللّه والسّير إليه.[43] يقول الشّاعر:[44]

«ويسيل لحن من فمي
فإذا البروق تدغدغ الأرض المرضيّة»

خ- **رمز الصّلاة:** ويوحي استخدامها بتحضير الذات وتهيئتها لدخول عالم نورانيّ يتداخل فيه المعنويّ بالمحسوس[45].وهي رمز للسّفر إلى العالم الرّوحيّ، والانتفاء ومغادرة العالم المادي.ومنها يقول الشّاعر:[46]

«أشدو... أصلّي»

ورمز الصّلاة في الخطاب الصّوفيّ لا يأتي مباشرا على أنّه شعيرة من الشّعائر؛ بل يكون كما وظّفه عثمان لوصيف، فالعبادات هي انكشاف للمقامات.[47]

د- **رمز الحجاب:** انطباع الصّور الكونيّة في القلب المانعة لقبول تجلّي الحقائق.[48] وهو رمز للمرحلة ما قبل المعرفة الإلهيّة؛ وما إن يصل الصّوفيّ إلى ربّه يكون هذا الحجاب قد هُتك ومزّق؛ يقول الشّاعر: [49]

« ثمّ إذا حنّت الأرض إليك بعد سقوطها
في دورة الأشياء مزّقت الحجاب »

ذ- **رمز البراق:** ويرمز بالبراق إلى الرّحلة الصوفية لدى العديد من الشعراء تمثلا برحلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى السموات السبع، فالبراق هو رمز للجذب أيضا، لأنّه يختصر المسافات بسرعته.[50] يقول الشّاعر: [51]

«ناديت منخطفا ومن أعماق وجدي:
هذه ناري وهذه صهوتي وبُرَاقي»

ر- **رمز الطفلة:** يمكن تأوّل الطّفلة التي ربطها الشّاعر بالطّبيعة على أنّها رمز البراءة والصّفاء والطّهارة. يقول الشّاعر: [52]

«فأبصر في مراياها الحميمة
طفلة عصماء
تسقيني الحنان فأشرب»

فباب الطّاء في معجم المصطلحات الصّوفيّة يرتبط أساسا بأنواع الطّهارة وطيب الرّوح، والطّاهر من لا يذهل عن اللّه طرفة عين؛ بل يشرب من مناجاته والتضرّع إليه.[53] يقول الشّاعر: [54]

« يا طفلتي يا شعلتي !
قولي ولا تتكتّمي
من أين تصعد هذه الأجراس»

ز- رمز العدد سبعة: غالبا ما يرمز إلى السّماوات السّبعة، وما وراءها من طبات، قال الشّاعر:

«كانت بحار سبعة
مثل السّماوات الطّباق بعيدة الآفاق»

فالأفلاك السّبعة هي سماوات الرّحلة والتجلّي الإلهيّ، عند الصوفيّة جميعا، - و بلوغ السماء السّابعة يعدّ وصولا في الرّحلة الصّوفيّة.

س-رمز اللّون الأخضر: يحدّق الصّوفيّ في مرآة الكون فيشهد الأشياء وقد تلونت بلون واحد، وهو اللّون الأخضر، وهو رمز صوفيّ إسلاميّ مرتبط بالشّريعة والحقيقة على حدّ سواء، كما يرتبط هذا الرمز في العرفانيّة الصّوفيّة بمقام الصديقيّة التي عرفها ابن عربي على أنّها هي نور اخضر بين نورين، يحصل بذلك النّور شهود عين ما جاء به المخبر من خلف حجاب الغيب بنور الكرم، ولهذا الرمز دلالته كذلك في القرآن الكريم، إذ ورد صفة للسّنبلة ولباس أهل الجنّة واخضرار الأرض، واخضرار الشّجر.[55] يقول الشّاعر: [56] «والكون كلّ الكون وحي أخضر» كما أنّه الصفة الدالة على الحياة والخصب والتجدّد.[57] يقول الشّاعر: [58]

«يا بحرها يا بحر طفلتي التي أحيا لها
يا أخضر الخصلات والأمواج»

وهو لون من ألوان أنوار الشّهود.[59] يقول لوصيف: [60] «ومضيت أتبع خيط نور أخضر وهّاج»
وقد يرمز إلى الجنّة والجنان أحيانا، وإلى الخير العميم كما في قول لوصيف:[61]

«غادرت ذاك البحر مسلوب الحجى
لأغوص في بحر أضاع مياهه الخضراء»

ثانيا: الأساطير وتأويلها:

أ- **أسطورة الماء:**

تذهب معظم الدّراسات والأبحاث والمعتقدات وحتّى الكتُب المقدّسة إلى أنّ أصل الكون هو الماء، وهو أيضا مبعثٌ للخراب والدّمار والفناء والحياة والموت والانبعاث من جديد، ولقد ارتبط هذا العنصر ارتباطًا وثيقًا بالخوارق والأساطير، إذ لا يكاد يذكر إلاّ وهناك أسطورة أو معجزة لصيقة به[62]. وقد ربط الشّاعر عثمان لوصيف بين الماء والجرس الذي يطارده في أكثر من موضع ابتداءً من العنوان «جرس لسماوات تحت الماء»، وقد تماشى هذا الرّبط وفق الآية الكريمة: «وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ»[63]؛ حيث جعل الماء في ديوان أصل كلّ شيء ابتداءً من الجنّة التي يبحث عنها، أو الرّوح التي يفتقدها. يقول الشّاعر: [64]

«غمست في جرح الأصيل ربابتي
ورجعت مغسولا.. ترانيمي دعاء
لي روح الماء
لي هذه الغابات تغزل سندسا أو نرجسا»

ب-**أسطورة الطّوفان:**

وهو المهلك الجارف لكلّ شيء. وقد أورد آثر كورتل في كتابه: معجم أساطير العالم أسطورة الطّوفان البابليّة واتي جاءت كردّ فعل من انزعاج الآلهة من الصوت الذي يصنعه البشر تحت النّجوم، بالرغم من امتنان سكان السماء من البشر لأنهم خلّصوهم من عناء العمل ولكن الآلهة لم تتحمّل الضجّة فقامت بكارثة كونيّة على شكل مياه الطّوفان.[65] وقد حاكى عثمان لوصيف مضمون هذه الأسطورة فأوردها بأنّها السّيل الجارف الذي يتلظّى، لكنّه في هذا الدّيوان يستجلّب الطّوفان بأن يجرف له رؤاه التي ينشدها. يقول في ذلك:[66]

«يا وردة الرّؤيا تلظّي في دمي لهبا
وسيلي مثل طوفان
تلظّي وافتحي لغوايتي غذك الشّرس»

ت-**أسطورة السندباد:**

وهو رمز للبحث الدّؤوب والدّائم، واختراق المجهول، ورمز الاكتشاف والبحث عن عوالم الامتلاء والخصوبة، فقد ألهمت الشعراء بوصفها المعادل لإشراقات رؤيويّة، رؤيا البعث المنتظر لواقع هشّ ومتآكل.[67] وهذا ما جسّده الشّاعر عثمان لوصيف حين ربط سفره بأسطورة السّندباد ليبين عن رحلته في الحياة وبحثه الدّؤوب عن روحه وجنّته. يقول في ديوانه[68]:

«هذي لجج ممزّقة وأخرى هائمات
من هنا قد مرّ نوح
والسّندباد...»

ث-**أسطورة الشيطان:**

إن الشّيطان واتباعه رفضوا الرّضوخ والرّكوع لآدم وطُردوا من السماء إلى الأرض. ومنذ ذلك الوقت بدأ العداء بين الشيطان والبشرية.[69] ويظهر هذا العداء جليّا عند عثمان لوصيف حين تتعارض رغبته مع الشّيطان الذي أنساه الماء وكلّ ما يصبو إليه. قال تعالى «وما أنسانيه إلّا الشّيطان أن أذكره»[70]وفي ذلك يقول عثمان لوصيف:[71]

«أيّ شبح يراوغني لأنسى الماء
آه ! أيّ شيطان تمثّل لي جسدا»

ثالثا: المفارقات وتأويلها:

أ-**مفارقة المطاردة والالتفات:**

يقول الشّاعر:[72]«جرس أطارده فتخطفني البروق»يدلّ فعل الخطف في الأسطر الشّعريّة استنادا إلى المعنى الأوّل؛ على مفاجأة الشّاعر وقد أوغل بعيدا وراء طريدته لدرجة الشّرود. ويدلّ هذا الفعل استنادا إلى المعنى الثّاني على أخذ الشّاعر من مجال بحثه ومطاردته وإدخاله إلى مجال آخر مختلف وغرائبي. وكأنّنا هنا أمام حال السّالك الصّوفيّ وهو مخطوف بالحقيقة يسعى وراءها في كلّ جهة.[73]وتحدث المفارقة الثّانية بعد هذا بواسطة الالتفات. فبعدما عبّر الشّاعر عن هرولته وراء ذاك الجرس الغامض، ينتقل إلى التّعبير عن الهرولة في "سهوب العمر" بما يدل على الحياة البيولوجيّة للإنسان.[74]يقول الشّاعر:[75]

« وأنا أهرول في سهوب العمر
أبحث عن جراحاتي التي انهمرت
بالأمس متّي هل رعاها الأنبياء »

ب-**مفارقة الحضور والغياب:**

وتتحقّق مفارقة الحضور والغياب من منظور صوفيّ في كون الإنسان هو الحاضر الغائب في اللّحظة نفسها، في المكان نفسه؛ حاضر بكتلة جسده التي تتفاعل مع مختلف المواقف، وغائب بروحه التي تصّاعد إلى عوالم نورانيّة، ربّانيّة.يقول عثمان لوصيف[76]:

«يا بحر روحك حرة وأنا سجين الطّين
حوّلني إلى ماء لعلي أبتدي
أو تهتدي روحي إلى معراجي»

ونستشفّ من هذا المقطع عنصرا المفارقة وهما الحضور والغياب؛ فالشّاعر الحاضر الغائب سجين في الحضور، وفي كينونته، ومكانه، والطّين الذي يتشكّل منه. وهو غائب إذ يتوق أن تنطلق روحه حرّة إلى معراجها وسفرها المنشود.

ت-**مفارقات الرؤيا الصوفيّة:**

لو عدنا إلى ديوان "جرس لسماوات تحت الماء" ندرك خصوصية الرّؤيا التي انطلق منها، وهي رؤيا صوفيّة عميقة تتّخذ السّلوك والمقام سبيلين مرتبطين أوّلها أرضيّ يسلكه الصوفيّ في حياته. وثانيهما سماويّ يتمثل فيما يفضي إليه السّلوك من مقامات المعرفة بالله وبالعالم.[77] يقول عثمان لوصيف[78]:

«وإذا الطّبيعة كلّها سرّ يكاشفني
فأبصر في مراياها الحميمة
طفلة عصماء
تسقيني الحنان فأشرب»

جعل الشّاعر هنا من الطّبيعة سرّا يكاشفه ويتردّد في خواطره، وربط الطّبيعة الجميلة بشكلها الماديّ بالبصيرة. فالذي يقف في وجه الطّبيعة لا بد أن يرى عناصرها. بيد أنّ الشّاعر يقف في حضرتها أعمى لكنّه بصير بما تخفيه من أسرار، متبصّر بقلبه مراياها الحميمة. فالشّاعر ليس يهمّه التّظر إلى الطّبيعة، وإنّما فيما تخفيه ظواهر الموجودات من أسرار العالم والإنسان.

رابعا: الصور وتأويلها:

شكّلت الصّور الشّعريّة في هذا الدّيون تيمات صوفيّة خالصة، ومنها الصّور التي تشكّل ثيمة الرّحلة والسّفر الذي يعيشه الشّاعر. يقول الشّاعر:[79]

«جرس أطارده فتخطفني البروق
غمامة تدنو وأخرى تهرب
وأنا أهرول في سهوب العمر»

هذا التآلف بين الهرولة والسّهوب أعطى لهذه الصّورة بعدا آخر هو الفساحة والشّساعة واللامحدوديّة في رحلة الشّاعر. لتكون هذه الصّورة أبلغ في وصف هذا السّفر المجهول وهذا الاغتراب الذي يعيشه. وفي موضع آخر يشبّه نفسه بالطّائرفيقول:[80]

«وأنا أطير... أطير مشتعلا
أبحث عن فضاء الرّوح عن مغنى»

لتعكس هذه الصّورة جانبا مهمّا من حياة الشّاعر التي هي أشبه بحياة طائر يبحث عن قوت. ثمّ صنف آخر من الصّور الشّعريّة، وهي التي تحكم مكوّناتها علاقات مشابهة تسهم في رسم صورة هيجان الذّات رفضا وتمرّدا؛ تتحوّل فيها الطّبيعة في قمّة هيجانها إلى صورة تلك الذّات في انفعالاتها القويّة. [81] يقول:[82]

«شرر يعانق ما تطاير من شرر
هل كانت السدم القديمة عاودت تاريخها
أم أن روح الكون في جبروت فوضاها
تلملم من جديد ما اندثر ؟»

ثم صور أخرى مشكّلة لتيمة البعث والميلاد يقول الشّاعر:[83]«والقبر ينهض والرّفات» فنهوض القبر والرّفات تعبير مجازيّ، وهو كناية عن البعث الذي يكسو قصائد الشّاعر الذي يعيش انخطافا وشرودا.

-خاتمة:

إذا كان من عمليّة البحث الوقوف على أهمّ نتائجه، فلقد نجمل ما تمّ استخلاصه من هذه الدّراسة، وفق نقاط متسلسلة هي كما يلي:

ديوان "جرس لسماوات تحت الماء"، مفعم بالخطاب الصّوفيّ؛ تكتسح أسطره النّزعة الصّوفيّة، التي تعكس الإغتراب الرّوحيّ الذي عاشه الشّاعر في حياته وإن لم يصرّح بذلك.

جاء توظيف الخطاب الصّوفيّ نتيجة لما سبق؛ وقد تجلّى في تمظهرات منها الرّموز والأساطير التي كثيرا ما ترتبط بهذا الخطاب، والمفارقات الصّوفيّة كالمطاردة والالتفات، والصّور الشّعريّة التي كشفت عن تيمات صّوفيّة؛ مثل: تيمة الرّحلة، و تيمة البعث والميلاد.

كان توظيف هذا الخطاب عفويّا من دون تكلّف؛ من خلال اللّغة البسيطة التي جاءت في أبهى صورها، ناهلة من قاموس الطّبيعة الذي يعكس تأمّلات الشّاعر الممتدّة واللّانهائيّة. وقد تأكّد بشكل واضح أنّ الشّاعر عاش بعض ارهاصات التّجربة الصّوفيّة العرفانيّة، بما تحمله من اعتزال وتأمّل وتضرّع وغيرها.

لنقول أخيرا أنّ ديوان جرس لسماوات تحت الماء، قد مثّل بحقّ نموذجا للخطّاب الصّوفي الإبداعيّ الذي يحمل كثيرا من التّجديد، وكثيرا من الفرادة والتّميّز.

-. قائمة الإحالات:

1 محمّد الأمين سعيدي، شعريّة المفارقات الصّوفيّة في ديوان" جرس لسماوات تحت الماء" لعثمان لوصيف، مقال بمجلّة الحوار الثّقافيّ، جامعة مستغانم، العدد الرّابع، 2015، ص 87.

2آمنة بلّعلى، الحركة التّواصليّة في الخطاب الصّوفيّ، مشورات اتّحاد الكتّاب العرب،دط، دمشق، سوريا، 2001، ص21.

3عبد الرحمن سيد سليمان، مناهج البحث، عالم الكتب، مصر، دط، 2014، ص: 131.

4منى جميّات، اللّغة في الخطاب الصّوفيّ من غموض المعنى إلى تعدّديّة التّأويل، مجلّة حوليّات التّراث، جامعة مستغانم، العدد 15، 2015، ص52.

5نهاد خيّاطة، دراسة في التّجربة الصّوفيّة، دار المعرفة، دمشق، سوريا، ط1، 1994،ص5.

6محمد كعوان، التّأويل وخطاب الرّمز" قراءة في الخطاب الشّعري الصوفيّ المعاصر"، دار بهاء الدّين، ط1، قسنطينة، الجزائر، 2009. ص170.

7الجوانيّة: رؤية الأشياء والأشخاص رؤية روحيّة.

8مروة متولّي، حداثة النّصّ الأدبيّ المستند إلى التّراث العربيّ، دار الأوائل، ط1، سوريا، 2008،ص136.

9منى جميّات،المرجع السّابق، ص52.

10محمّد علي كندي، في لغة القصيدة الصّوفيّة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2010،ص84.

11علي جعفر العلّاق، الشّعر والتّلقّي، دراسات نقديّة، دار الشّروق، ط1، عمان، 2002، ص179.

12محمّد تحريشي، في الرّواية والقّصة والمسرح، قراءة في المكوّنات الفنّيّة والجماليّة السّرديّة،دط، دار دحلب، الجزائر، دت، ص138.

13علي جعفر العلّاق، المرجع السابق، ص20.

14علي أحمد سعيد (أدونيس)، الصّوفيّة والسوريّاليّة، دار السّاقي، ط3، لبنان، دت، ص152.

15المرجع نفسه، ص161-162.

16محمّد علي كندي، المرجع السابق، ص31.

17عبد الرّحمان محمّد القعود، الإبهام في شعر الحداثة (العوامل والمضاهر وآليّات التّأويل)، عالم المعرفة، دط، الكويت، 2002، ص296.

18المرجع نفسه، ص101.

19المرجع نفسه، ص104.

20 Hans-Georg Gadamer, PHILOSOPHICAL HERMENEUTICS, Tr by: David E. Linge, University of California Press Berkeley and los Angeles, E 01, United States of America, 1977, P 24.

21المرجع نفسه، ص93.

22 عبد الرزّاق القاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفيّة، تح: عبد العال شاهين، دار المنار، ط1، مصر، القاهرة، 1992، ص65.

23 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص09.

24 عبد الرزّاق القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، تح:أحمد عبد الرّحيم السّايح وتوفيق علي وهبة وعامر النّجّار، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، القاهرة، مصر، 2005.ص45.

25 عثمان لوصيف، "جرس لسماوات تحت الماء"، جمعية البيت للثّقافة والفنون (منشورات البيت)، دط، الجزائر، 2008. ص08.

26 المصدر نفسه، ص19.

27 عبد الرزّاق القاشاني، المرجع السّابق، ص45.

28 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص16.

29 المصدر نفسه،ص39.

30 المصدر نفسه ،ص23.

31 المصدر نفسه ،ص28.
32 محمّد كعوان، المرجع السابق، ص 365.
33 عثمان لوصيف، المصدر السّابق،ص09.
34 المصدر نفسه ، ص09.
35 المصدر نفسه ، ص 30.
36 المصدر نفسه ، ص 21.
37 المصدر نفسه ، ص 48.
38 أسماء خوالديّة، الرّمز الصّوفيّ بين الإغراب قصدا والإغراب بداهة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2014، ص65.
39 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 25.
40 محمد كعوان،المرجع السّابق، ص322.
41 عثمان لوصيف، المصدر السابق، ص08.
42 محمّد كعوان، المرجع السّابق، ص 366.
43 عبد الرزّاق القاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفيّة، مرجع سابق، ص 63.
44 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص08.
45السّعيد بوسقطة، الرّمز الصّوفيّ في الشّعر العربّي المعاصر، بونة للبحوث والدّراسات ط2، الجزائر، 2008.، ص272.
46 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 10.
47 أسماء خوالديّة، المرجع السابق، ص 52.
48 عبد الرزّاق القاشاني، المرجع السّابق، ص81.
49 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 11.
50 محمّد كعوان، المرجع السّابق، ص362.
51 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 45.
52 المصدر نفسه ، ص 09.
53 عبد الرزّاق القاشاني، المرجع السّابق، ص85.
54 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 21.
55 المصدر نفسه ، ص325.
56 المصدر نفسه ، ص 36.
57 محمّد كعوان، المرجع السّابق، ص325.
58 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 38.
59 محمّد كعوان، المرجع السّابق، ص326.
60 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 40.
61 المصدر نفسه ، ص 40.
62 ليلى مساعدية، تجليات أسطورة الماء في ديوان "جرس لسماوات تحت الماء" لعثمان لوصيف، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر، تخصّص: أدب عربي جزائري، جامعة قالمة، 2017، ص37.
63 سورة الأنبياء، الآية 30.
64 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 30.
65 آثر كورتل، قاموس أساطير العالم، تر: سهى الطريحي، دار نينوى، دط، دمشق، سوريا، 2010، ص07.
66 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 33.
67 عبد القادر علي زرّوقي، الأسطورة في شعر محمّد بقاسم خمّار، مقال بمجلّة جسور المعرفة، العدد الرّابع، مخبر تعليميّة اللّغات وتحليل الخطاب، جامعة شلف، ديسمبر 2018، ص217.
68 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص23.
69 آثر كورتل، المرجع السّابق، ص46.
70 سورة الكهف، الآية 63.
71 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص51.
72 المصدر نفسه ، ص08.
73 محمّد الأمين سعيدي، المرجع السابق، ص89.
74 المرجع نفسه، ص89.

75 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص08.
76 المصدر نفسه، ص 39.
77 محمّد الأمين سعيدي، المرجع السابق، ص93.
78 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص 09.
79 المصدر نفسه ، ص08.
80 المصدر نفسه ، ص25.
81 السعيد قرفي، بناء الأسلوب في شعر عثمان لوصيف، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي تخصص: بلاغة وأسلوبية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الموسم الجامعيّ 2018/2017.ص 341.
82 عثمان لوصيف، المصدر السّابق، ص27-28.
83 المصدر نفسه، ص14.

-قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. Hans-Georg Gadamer, PHILOSOPHICAL HERMENEUTICS, Tr by: David E. Linge, University of California Press Berkeley and los Angeles, E 01, United States of America, 1977.
2. آثر كورتل، قاموس أساطير العالم، تر: سهى الطريحي، دار نينوى، دط، دمشق، سوريا، 2010.
3. أسماء خوالديّة، الرّمز الصّوفيّ بين الإغراب قصدا والإغراب بداهة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2014.
4. آمنة بلّعلى، الحركة التّواصليّة في الخطاب الصّوفيّ، مشورات اتّحاد الكتّاب العرب،دط، دمشق، سوريا، 2001.
5. السّعيد بوسقطة، الرّمز الصّوفيّ في الشّعر العربيّ المعاصر، بونة للبحوث والدّراسات ط2، الجزائر، 2008.
6. السعيد قرفي، بناء الأسلوب في شعر عثمان لوصيف، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي تخصص: بلاغة وأسلوبية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الموسم الجامعيّ 2018/2017.
7. عبد الرّحمان محمّد القعود، الإبهام في شعر الحداثة (العوامل والمضاهر وآليّات التّأويل)، عالم المعرفة، دط، الكويت، 2002.
8. عبد الرحمن سيد سليمان، مناهج البحث، عالم الكتب، مصر، دط، 2014.
9. عبد الرزّاق القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، تح:أحمد عبد الرّحيم السّايح وتوفيق علي وهبة وعامر النّجّار، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، القاهرة، مصر، 2005.
10. عبد الرزّاق القاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفيّة، تح: عبد العال شاهين، دار المنار، ط1، مصر، القاهرة، 1992.
11. عبد القادر علي زرّوقي، الأسطورة في شعر محمّد بقاسم خمّار، مقال بمجلّة جسور المعرفة، العدد الرّابع، مخبر تعليميّة اللّغات وتحليل الخطاب، جامعة شلف، ديسمبر 2018.
12. علي أحمد سعيد (أدونيس)، الصّوفيّة والسورياليّة، دار السّاقي، ط3، لبنان، دت.
13. علي جعفر العلّاق، الدّلالة المرئيّة"قراءات في شعريّة القصيدة الحديثة، دار الشّروق، ط1، عمان، 2002.
14. ليلى مساعدية، تجليات أسطورة الماء في ديوان "جرس لسماوات تحت الماء" لعثمان لوصيف، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر، تخصّص: أدب عربي جزائري، جامعة قالمة، 2017.
15. محمّد الأمين سعيدي، شعريّة المفارقات الصّوفيّة في ديوان" جرس لسماوات تحت الماء" لعثمان لوصيف، مقال بمجلّة الحوار الثّقافيّ، جامعة مستغانم، العدد الرّابع، 2015.
16. محمّد تحريشي، في الرّواية والقّصة والمسرح، قراءة في المكوّنات الفنّيّة والجماليّة السّرديّة،دط، دار دحلب، الجزائر، دت.
17. محمد كعوان، التّأويل وخطاب الرّمز" قراءة في الخطاب الشّعري الصوفيّ المعاصر"،دار بهاء الدّين، ط1، قسنطينة،الجزائر، 2009.
18. محمّد علي كندي، في لغة القصيدة الصّوفيّة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2010.
19. مروة متولّي، حداثة النّصّ الأدبي المستند إلى التّراث العربيّ، دار الأوائل، ط1، سوريا، 2008.
20. منى جميّات، اللّغة في الخطاب الصّوفيّ من غموض المعنى إلى تعدّديّة التّأويل، مجلّة حوليّات التّراث، جامعة مستغانم، العدد 15، 2015.
21. نهاد خيّاطة، دراسة في التّجربة الصّوفيّة، دار المعرفة، دمشق، سوريا، ط1، 1994.